

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

الرسالة النبوية

زاد المهاجر إلى ربّه

الإمام الجليل الخافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف

بأبي قسيم الجوزية

٦٩١ — ٧٥١ هـ



قدم له وقرأه

الدكتور محمد جميل غباري



المملكة العربية السعودية — وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

مطبعة المدف

المؤسسة السعودية بـمـضـر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سببحان ربك رب العزة عما يصفون .
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين]

* * *

تلك هي « الرسالة التبوكية » لابن القيم ، رحمه الله !

بدأ فيها مؤلفها بالتعرض لتفسير قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

ثم انطلق من تفسيره لهذه الآية إلى تفسير مجموعة أخرى من الآيات الكريمة .

ومن خلال هذه الآيات التي وقف أمامها دارساً ومفسراً وضع أيدينا على مجموعة من الفوائد - منها :

التفرقة بين البر والتقوى ، وما بينهما من عموم وخصوص .

وتحديد مفهوم العلم النافع ، والعالم الحق .

وتعريف الإثم ، والعدوان .

وتوضيح معنى (الهجرة) ومبدأها ومنتهاها ، وانقسامها إلى هجرتين ،
ثم ماهية الفرار إلى الله ، والفرار من الله ... والهجرة العارضة والدائمة .

كذلك ؛ فإن ابن القيم شرح في رسالته ؛ الهجرة إلى الله ، والهجرة إلى
رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتناول ابن القيم فيما تناول موضوع « السعادة » وما هي هذه السعادة ؟
وكيف يصل الإنسان إليها ؟

وبلغ ابن القيم ذروة الإجابة ، وهو يتعرض ويستعرض مسيرة الإنسان
إلى ربه ... وزاده ، ومركبه ، في هذه المسيرة .

* * *

وتعجب معي إذ تعلم أن هذه الرسالة على صغرها ، قد حوت كل هذه
المعاني - وغيرها - على كبرها .. !

ولسكنها طريقة ابن القيم ، وطريقة شيخه شيخ الإسلام فيما يعرضان له من
أبواب العلم والمعرفة .. !

وكذلك يسكون العالم الحجّة الثبت ، واعيا لأمر دينه مستوعباً
لها .. !

رحم الله ابن القيم ، وغفر له ...

لقد كان ذا حافظة قوية ، وعقلاً واعياً ، ولفسة طيعة ، وإماماً بعميدة
السلف ، ومنهجهم في الفهم والتوجيه !

وأعاننا الله على السير في طريق الذين أنعم عليهم ، من العلماء العاملين ،
وأولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون .

د . محمد جميل غازي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين وعليه نتوكل

قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية
رضي الله عنه وأرضاه - في كتابه الذي سيره من تبوك^(١) ثامن المحرم سنة
ثلاث وثلاثين وسبعمائة - بعد كلام له سبق :

أحمد الله بمحامده التي هو لها أهل ، والصلاة والسلام على خاتم رسله
وأنبياؤه : محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه : ﴿ وتعاونوا على البر
والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد
العقاب ﴾ (٢) .

● وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم ،
فما بينهم بعضهم بعضاً ، وفيما بينهم وبين ربهم ، فإن كل عبد لا ينفك عن
هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه
وبين الخلق .

(١) نسبة إلى قرية « تبوك » على حدود الحجاز من جهة الشام .

(٢) المائدة : ٢

فأما ما يفهمه ويدين الخلق : من المعاشرة والمعاونة والصحبة ، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم ، وصحبته لهم ، تعاونا على مرضاة الله وطاعته ، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة إلا بها ، وهي البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله ، وإذا أفرد كل واحد من الإسمين دخل في معنى الآخر ، إما تضمناً ، وإما لزوماً ، ودخوله فيه تضمناً أظهر ؛ لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى ، فإنه جزء مسمى البر . وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر .

● ونظير هذا : لفظ « الإيمان والإسلام » و « الإيمان والعمل الصالح » و « الفقير والمسكين » و « الفسوق والعصيان » و « المنكر والفاحشة » ، ونظائره كثيرة .

● وهذه قاعدة جلية من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس .

البر والتقوى

ولقد كر من هذا مثالا واحداً يستدل به على غيره ، وهو البر والتقوى . فإن حقيقة البر : هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير ، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام .

ومنه « البر » بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب .

ومنه رجل بار ، وبر ، وكوام بررة ، والأبرار .

فالبر : كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد . وفي مقابلته الإثم . وفي حديث النّوّاس بن سميان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له « جئت تسأل عن البر والإثم »^(١).

فالإثم كلمة جامعة للشّرور والعيوب التي يذم العبد عليها .

فيدخل في معنى البر : الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة ، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى . وأكثر ما يعبر عن بر القلب ، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته ، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته ، وانشرحه

(١) حديث النّوّاس بن سميان — بكسر السين وفتحها — رواه مسلم في أبواب البر والصلة والآداب (ج ١٦ ص ١١٠ بشرح التّووى) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النّوّاس بن سميان الأنصارى قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » وأخرجه أيضاً بلفظ « أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة . كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء . قال : فسألته عن البر والإثم . فقال : البر حسن الخلق — الحديث — وهذا ليس موافقاً لما ذكره المصنف ، وإنما الذي يوافق ما ذكره المؤلف رحمه الله حديث وابصة بن معبد قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألت عنه . فقال لي : « ادن يا وابصة فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته . فقال لي : يا وابصة أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت يا رسول الله أخبرني . قال : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينسكت بها في صدرى ويقول : يا وابصة استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

قال المنذرى في التّرجيب والترهيب : رواه الإمام أحمد بإسناد حسن .

وقوته ، وفرحه بالإيمان . فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب ، فمن لم يجدها فهو فاقده الإيمان أو ناقصه . وهو من القسم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْمَأْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

فهؤلاء - على أصح القولين - مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين ؛ إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيما شرها حقيقة .

• وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

• فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها .

وأنها الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة .

وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها فقال ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

التقوى

● وأما « التقوى » فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهيًا ، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده .

كما قال طلق بن حبيب « إذا وقعت الفتنة فاطفئوها بالتقوى ، قالوا : وما التقوى » قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

● وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ، فيسكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ولا طلب الحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرون بين هذين الأصلين في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » و « ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً »^(١) ونظائره .

فقوله « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه .

وقوله « تترجو ثواب الله » إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب ، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ، ولها يقصده .

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه ، وأن البر داخل في هذا المسمى .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾^(٢) ، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدون كماله .

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ، ولفظها يدل على هذا . فإنها فعل ، ومن وقى يقى ، وكان أصلها وقوى ، فقلبوا الواو تاء ، كما قالوا تراث من الوراة . وتجاه من الوجه ، وتخمة من الوخمة ، ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية ، فإن المتقى قد جعل بينه وبين النار وقاية ، والوقاية من باب دفع الضر ، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه بلفظ « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

(٢) المائدة : ٢ .

العلم النافع

• وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته ، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله .

• فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين .

إحداها : أن يدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه ، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ ، فيساوى بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى اللفظ بعض أفراده الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه ، فيفوق بين ما جمع الله بينهما .

والذي الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها ، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع .

وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم .

ومن هذا لفظ : (الخمر) ، فإنه اسم شامل لكل مسكر ، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وبنفي عنها حكمه .

وكذلك لفظ : (الميسر) وإخراج بعض أنواع القمار منه .

ولذلك لفظ : النكاح وإدخال ما ليس بنكاح في مسماه .

وكذلك لفظ : (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه ، وإدخال ما ليس
برباً فيه .

وكذلك لفظ : (الظلم والعدل) و (المعروف وللنكر) ونظائره أكثر
من أن تحصى .

• والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم : هو التعاون على البر والتقوى ،
فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه . فاقترضت حكمة
الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه ، معيناً بعضه لبعضه .

• ثم قال تعالى ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

و (والإثم والعدوان) في جانب النهي نظير : (البر والتقوى) في
جانب الأمر .

والفرق بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر .

الإثم

فالإثم ما كان حراماً لنفسه .

والعدوان ما حرم لزيادة في قدره وتعدى ما أباح الله منه .

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها : إثم .

وفساح الخماسة واستيفاء المحنى عليه أكثر من حقه ونحوه : عدوان .

المعروان

فالمعروان : هو تعدى حدود الله التي قال فيها : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ^(١) .

وقال في موضع آخر ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ ^(٢) فمنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية . وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام ، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتسكون منه ، وتارة لا تسكون داخلة فيه فتسكون لها حكم المراقبة . فالاعتبار الأول نهى عن تعديها ، وبالاعتبار الثاني نهى عن قربانها .

(١) البقرة : ٢٢٩

(٢) البقرة : ١٨٧ .

فصل

[ما بين العبد وربّه]

● فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس ، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى ، علماً وعملاً .

● وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، وهو قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق .

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر ، ولا يتم له أداء الواجب الثانى إلا بعزل الخلق من البين ، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية .

● فينبغى التفطن لهذه الدقيقة ، التى كل خلل يدخل على العبد فى أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملاً . وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدّس الله روحه « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل فى تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .
والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها .

فصل

[في الهجرة إلى الله ورسوله]

• لما فصل غير السفر واستوطن المسافر دار الغربة وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه : أحدث له ذلك نظراً فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره ، فأرشده من ييده الرشد إلى أن أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله ، فإنها فرض عين على كل أحد في كل وقت ، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها ، وهي مطلوب الله ومراده من العباد .

نوعا الهجرة

إذ الهجرة هجرتان :

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها مغلوطة ، وليس المراد الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه هي المقصودة هنا . وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية وهي الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها .

مبدأ الهجرة ومنهجها

• وهى هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيها جرح بقلبه من محبة غير الله إلى محبته .

ومن عبودية غيره إلى عبوديته .

ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ ففروا إلى الله ﴾^(١) .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

الفرار إلى الله

• وتحت (من) و (إلى) فى هذا سر عظيم من أسرار التوحيد .

فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها ، فهو مقتضى لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١) التاريات : ٥٠

(٢) زاد المهاجر

الفرار من الله

● وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما في الكون من المسكروه والمخذور الذي يفر منه العبد ، فإنما أوجبه مشيئة الله وحده ، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وُجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه .

● ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وأعوذ بك منك »^(١) .

وقوله « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك »^(٢) . فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيز : فارتجما أوجده قدر الله ومشيئته وخالقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيز بالله منه .

(١) روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في سجوده : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . »
(٢) عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطلع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك - الحديث » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالسكينة خوفاً ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ؛ مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه فى حال فراره من الأول خائف منه خيراً أن لا يكون الثانى يفيد منه ، بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

● فتعظّن إلى هذا السر العجيب فى قوله « أعوذ بك منك » و « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا فى هذا أقوالاً وقلّ من تعرّض منهم لهذه النكتة التى هى لبّ الكلام ومتصوده . وبالله التوفيق .

الهجرة إلى الله

● فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ؛ وهو معنى

الهجرة إلى الله تعالى ؟

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

● والمتصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإيمان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن

يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمور إليه على الآخر . وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بُلى بهؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعون به إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ، ولا ينفك في هجرته إلى الممات .

فصل

[الهجرة بين القوة والضعف]

- وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي الحجة في قلب العبد ، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ، ولا يتحرك لها إرادة .

الهجرة العارضة

- والذي يقضى منه العجب : أن المرء يوسع الكلام ويفرغ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح ، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً .

الهجرة الدائمة

- وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس ، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة وماذا لك إلا للاعراض عما خلق له . والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره . وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال . والله المستعان وبالله التوفيق ، لا إله غيره ولا رب سواه .

فصل

في الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

● وأما الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلم لم يبق منه سوى اسمه ، ومنهج لم تترك بنبات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفت عليها السواقي فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعادي ففوت مناهلها وعيمونها ، فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حي وناد ، بعيد على قرب المكان ، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس مما به يستوحشون ، مقيم إذا ظعنوا ، ظاعن إذا قطنوا ، مفرد في طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر به . فهو الكائن معهم بحسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت في طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم ، وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو في طلبها مشرقائم ، يعميونه بمخالفة آرائهم ، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم ، قد رجوا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ (١) .

﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ (٢) .

نحن وإياكم نموت ، فما أفنح عند الحساب من ندما

(١) التوبة : ٥٢

(٢) الأنبياء : ١١٢

● والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد . وطريقها على غير المعتاد بعيد .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة أما على المشتاق فهو قريب
ولعمرك الله ، ما هى إلا نور يتلألأ ، ولكن أنت ظلامه ، وبدر أضاء
مشارك الأرض ومقاربتها ، ولكن أنت غيمه وقمامه . ومنهل عذب صاف ،
وأنت كبدته ومبتدأ الخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره .
فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها ، وحاسب ما بينك وبين الله
هل أنت من المهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

تعريف الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

● فخذ هذه الهجرة : سفر النفس فى كل مسألة من مسائل الإيمان ،
ومنزل من منازل القلوب ، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ،
ومنبع النور المتقى من فم الصادق المصدوق الذى ﴿ وما ينطق عن الهوى
إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (١) .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فاقذف بها فى بحر الظلمات ،
وكل شاهد عدله هذا للزكى وإلا فعذه من أهل الريب والتهمة ، فهذا حد
هذه الهجرة .

فما للمقيم فى مدينة طبعه وعوائده القاطن فى دار مرباه ومولده ، القائل :

إننا على طريقة آبائنا سالكون ، وإننا نجعلهم متمسكون ، وإننا على آثارهم
معتدون . ولهذا الهجرة ؟ التي كُتبت^(١) عليهم ، واستندت في طريقة نجاحه وفلاحه
إليهم ، معتذراً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه ، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق
من ظنه وحده .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاق
إلى أرض البطالة ، مقولدة بين الكسل وزوجه للملاة .

هجرة ثان

● والمقصود : أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهي مقتضى « شهادة
أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرةين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفي البرزخ ، ويطلب
بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

● قال قتادة : « كلتان يسأل عنهما الأولون والآخرين : ماذا كنتم
تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ؟ » .

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين . وقد قال تعالى : ﴿ فلا وربك
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « فهو يهيش كلا عليهم » أى عالة عليهم .

تَضَيَّتْ وَيَسَامُوا تَسْلِيًا ﴿٢١﴾ ، فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِأَجَلٍ مُّقَسَّمٍ بِهِ — وَهُوَ نَفْسُهُ عَزَّ وَجَلَّ — عَلَى أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ لَهُمُ الْإِيمَانُ ، وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِهِ ، حَتَّى يَحْكُمُوا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَوَارِدِ النَّزَاعِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الدِّينِ .

فَإِنْ لَفْظَةُ « مَا » مِنْ صَيَغِ الْعُمُومِ ، فَإِنَّهَا مُوَصَلَةٌ تَقْتَضِي نَفْيَ الْإِيمَانِ أَوْ يَوْجِدَ تَحْكِيمَهُ فِي جَمِيعِ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا حَتَّى ضَمَّ إِلَيْهِ إِشْرَاحَ صُدُورِهِمْ بِحُكْمِهِ ، حَيْثُ لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجًا — وَهُوَ الضِّيقُ وَالْحَصْرُ — مِنْ حُكْمِهِ ، بَلْ يَقْبَلُوا حُكْمَهُ بِالْإِشْرَاحِ ، وَيَقَابِلُوهُ بِالتَّسْلِيمِ لَا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَهُ عَلَى إِغْمَاضٍ ، وَيُشْرِبُونَهُ عَلَى قَذَى ، فَإِنَّ هَذَا مُبَافِ الْإِيمَانِ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَسْكُونَ أَخْذَهُ بِقَبُولِ وَرْضَا وَإِشْرَاحِ صُدُورِهِ .

● وَمَتَى أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَعْلَمَ هَذَا فَلْيَنْظُرْ فِي حَالِهِ ، وَيَطَّالِعْ قَلْبَهُ عِنْدَ وَرُودِ حُكْمِهِ عَلَى خِلَافِ هَوَاهُ وَغَرَضِهِ ، أَوْ عَلَى خِلَافِ مَا قَلَّدَ فِيهِهِ أَسْلَافَهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الْكَبِيرَةِ وَمَا دُونَهَا ﴿٢٢﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴿٢٣﴾ .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! كَمْ مِنْ حَزَازَةٍ فِي نَفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ وَبُودِهِمْ أَنْ لَوْ لَمْ تَرْدْ ؟ وَكَمْ مِنْ حَرَارَةٍ فِي أَكْبَادِهِمْ مِنْهَا ؟ وَكَمْ مِنْ شَجَى فِي حُلُوقِهِمْ مِنْهَا وَمِنْ مَوْرِدِهَا ؟ سَتَبَدُّوهُمْ تِلْكَ السَّرَائِرُ بِالذِّى يَسُوءُ ، وَيَخْزَى يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ .

• ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى : ﴿وَسَلِّمُوا﴾ تسليماً^(١) ، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين . وهو التسليم والخضوع له والالتقياد لما حكم به طوعاً ورضاً ، وتسليماً لا قهراً ومصابرة كما يسلم المهزوم لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ، وأبرّ به منها وأقدر على تخليصها .

فمضى علم العبد هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسلم له ، وسلم إليه : انتقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لاسمعة له إلا بهذا التسليم والالتقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة ، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه لاتقى العبارة بمعناه ، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأمانى .

وكل^٢ يدعى وصلاً لليلي وليلى لاتقر لهم بذلك

الحب بين العلم والحال

• وفرق بين علم الحب وحال الحب . فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده ، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال ؛ وهو متخبر بالمرض ، وبين الصحيح السليم ، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها . وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

(١) النساء : ٦٥

ما فى الآية من تأكيد اتباع الرسول

• وتأمل تأكيد سبجانه لهذا المعنى المذكور فى الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها يقض من القسم عليه للنفى وهو قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ وهذا منهج معروف فى كلام العرب ، إذا أقسموا على شئ منفى صدروا جملة القسم بأداة نفى مثل هذه الآية .

ومثل ما فى قول الصديق عمر رضى الله عنه « لاها الله - لا يعمد إلى أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه » .

وقول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقال الآخر :

فلا والله لا يلقى لما بى ولا لما بهم أبداً دواء

وهذا فى كلامهم أكثر من أن يذكر .

• وتأمل جمل القسم التى فى القرآن المصدرة بحرف النفى تجدد القسم عليه منفياً ومتضمناً للنفى ؟ ولا يخرم هذا قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . إنه لقس لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم ﴾ (١) .

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفى ما قاله الكفار في القرآن: من أنه شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، صدر القول بأداة النفي. ثم أثبت له ما قالوه. فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون، ولكنه قرآن كريم.

ولهذا صرح بالأمرين: النفي والإثبات مثل قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم﴾ (١).

وكذلك قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ (٢).

● والمقصود: أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضى تقوية القسم عليه، وتأكيده وشدة انتفائه.

وثانيها: تأكيده بنفس القسم.

وثالثها: تأكيده بالتقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيده بانتفاء الحرج، وهو وجود التسليم.

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر ، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة
لى هذا الأمر العظيم ، وإنه مما يعنى به ويقرر فى نفوس العباد بما هو من أبلغ
أنواع التقرير .

حب الرسول

وقال تعالى : ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾^(١) وهو دليل على أن من
لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين ، وهذه الأولوية تتضمن
أموراً .

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ؛ لأن الأولوية أصلها الحب ،
ونفس العبد أحب له من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها ،
وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر
لوازم المحبة ، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإثاره على ماسواه .

ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً ، بل الحكم على نفسه
لِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد
على ولده ، فليس له فى نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذى هو
أولى به منها .

فباعتبار كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول
صلى الله عليه وسلم عن منصب التحكيم ، ورضى بحكم غيره واطمأن إليه أعظم

من اطمئنانه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن المهدي لا يتلقى من مشكاته وإنما يتلقى من دلالة العقول ، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين ، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به ، والحوالة في العلم النافع إلى غيره ، ذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ماسواه ، وتوليته في كل شيء وعرض ماقاله كل أحد سواه على ما جاء به ، فإن شهد له بالصحة قبله ، وإن شهد له بالبطالان رده . وإن لم تقبلين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به ؟ .

• فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله ، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة .

أروعاء المحبة

• ومن العجب أن يدعى حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتعظيم إليها ، وعرض ماقاله الرسول عليها ، فإن وافقها قبله ، وإن خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ في رده لئلا يعرضاً .

الاعتراف عن الرسول

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ﴾^(١).

• وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ﴾^(٢).

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية ، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدواً كان أو ولياً وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب ؛ إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره .

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله ، مُنافٍ لما بعث به رسوله .

والقيام فيها بالقسط وظيفه خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه . ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ورسوله ولعبادته .

وأولئك هم الوارثون حقاً .

لأمن يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، يعادى من خالفه ويؤا إلى من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته ، فأين هذا من القيام بالقسط الذى فرضه الله على كل أحد ؟ وهو فى هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً ؟

شهداء الله

● ثم قال (شهداء الله) الشاهد هو المخبر ؛ فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول ، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً مع القيام بالقسط ، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره .

وقال فى الآية الأخرى ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ ^(١) فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدها : القيام بالقسط .

الثانى : أن يكون لله .

الثالث : الشهادة بالقسط .

الرابع : أن تكون لله .

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله .

وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ،
ليس هذا موضع ذكره .

• ثم قال تعالى : ﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ فأمر سبحانه
أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم
بالقسط على نفسه ووالديه الذين هما أصله وأقاربه الذين هم أخص به والصديق
من سائر الناس ، فإن كان مافي العبد من محبة لنفسه ووالديه وأقربيه يمنعه من
القيام عليهم بالحق ، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم ، فإنه
لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ماسواهما .

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه ،
وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم
أن يحيف عليهم ، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن
يترك القيام عليهم بالقسط ، فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا
الحب عن الحق . كما قال بعض السلف : العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله
غضبه في باطل ، وإذا رضى لم يخرج رضىه عن الحق .

• اشتعلت الآيتان على هذين الحكمين : وهما القيام بالقسط والشهادة
به على الأولياء والأعداء .

• ثم قال تعالى : ﴿ إن يكن غنياً وفقيراً فالله أولى بهما ﴾ (١) منكم ،

(١) النساء : ١٣٥

هو ربهما ومولاهما وهما عبده ، كما أنكم عبده فلا تحابوا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، فإن الله أولى بهما منكم .

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغنى والفقير .

أما الغنى فخوفاً على ماله ، وأما الفقير فلا عدامه وأنه لا شيء له ؛ فتساهل النفوس في القيام عليه بالحق فقليل لهم : والله أولى بالغنى والفقير منكم ، أعلم بهذا وأرحم بهذا ، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غنى ولا فقير .

• ثم قال تعالى : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ .

نهام عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى : ﴿ أن تعدلوا ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله ، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا ، أو حذر أن تعدلوا ، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه . وعلى قول السكونيين التقدير أن لا تعدلوا ، وقول البصريين أحسن وأظهر .

اللى والاعراض

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق ، محذراً منهما ومتوعداً عليهما .

أحدهما : اللى .

والآخر : الإعراض .

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها ،
أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس ، وتارة
يلويها ويحرفها .

الى مثال القتل وهو التحريف .

وهو نوعان : لى فى اللفظ ، ولى فى المعنى .

فاللى فى اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ، إما بزيادة لفظه
أو نقصانها أو إبدالها بغيرها .

ولى فى كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره ، كما كان
اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبى صلى الله عليه وسلم وغيره ، فهذا أحد
نوعى اللى .

والنوع الثانى منه : لى المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف
مراد المتكلم ، وبجهالة ما لم يردده أو يسقط منه لبعض المراد به ، ونحو هذا
من لى المعانى ، فقال تعالى ﴿ وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون
خبيراً ﴾ .

• ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتفها
ولا يغيرها كان الإعراض نظير السكتان

والى نظير تغييرها وتبديلها .

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم .

• والمقصود : أن الواجب الذى لا يتم الإيمان ، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به ، مقابلة النصوص بالتلقى والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها ، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللى أخرى .

* * *

الخبرة لله

• وقال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ ^(١) فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله فى كل مسألة من المسائل حكم طلبى أو خبرى ، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه ، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً ، فدل على أن ذلك مناف للإيمان .

* * *

موقف الأئمة من السنة

• وقد حكي الشافعي رضى الله تعالى عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، على أن من استبان له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضى الله تعالى عنه .

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول للعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون مائة الاتباع فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها ، عياداً بالله من الخذلان .

• وقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَوْا أَنْتُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفى بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، كما يغلط فيه كثيراً من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة معه لا تقرير كون المفهوم حجة . بل هذا من الأحكام التى ترتبت على شروط وعلمت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه ؛ وإلا لم يكن شرطاً له .

إذا ثبت هذا : فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته .

• وفى إعادة الفعل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول ، سر لطيف وفائدة جلية ، سنذكرها عن قريب .
إن شاء الله تعالى .

• وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ .

الفعل للمخاطبين . وأصله فإن تقولوا ، فخذت إحدى التاءين تخفيفاً .
والمعنى : أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته والالتقياد له والتسليم .

كما ذكره البخارى فى صحيحه عن الزهري قال : « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم » .

فإن تركتم أتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليه -كم لا عليه .
فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم .
وإنما حمل أداء الرسالة إليكم .

﴿ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ ^(١) ليس عليه هدام وتوفيقهم .

• وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً^(١) .

الفداء بالزكاة

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله .

● وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر ، بأن المطلوب منهم من
موجبات الاسم الذى نودوا به وخوطفوا به ، كما يقال : يا من أنعم الله عليه
وأغناه من فضله ، أحسن كما أحسن الله إليك : ويا أيها العالم علم الناس
ما ينفعهم ، ويا أيها الحاكم احكم بالحق ونظائره .

● ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾^(٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة ﴾^(٣) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾^(٤) .

ففى هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين ، فالإيمان يقتضى منكم كذا
وكذا ، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه .

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) البقرة : ١٨٣ .

(٣) الجمعة : ٩ .

(٤) المائدة : ١ .

• ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر ، وسلط عليهما عاملاً واحداً . وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضى عكس هذا ، فإنه من يطلع الرسول فقد أطاع الله . ولكن الواقع هنا في الآية المناسب . وتحتيه سر لطيف وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة . فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته فيه .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

طاعة أولى الأمر

• أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول ؛ لا طاعة مفردة مستقلة ، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى . فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة » .

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ ولم يقل ﴿وإلى الرسول؟﴾ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله ، وما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو بعينه حكم الله .

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله . وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله ، وهذا من أسرار القرآن .

من هم أولو الأمر

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولى الأمر ، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان :

إحداها : أنهم العلماء .

والثانية : أنهم الأمراء .

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية ، والصحيح أنها مقنولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاية الأمر الذي بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولايته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألحد فيه وزاغ عنه .

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى : ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾^(١) فيألفها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتفاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم .

(١) الأنعام : ٨٨ .

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه .

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية .

• ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَفَارَقْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ 》^(١) .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تفرع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله ، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية ، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تفرع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ 》 وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينفى المشروط بانتفائه ، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء ، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها ، عاصمة المتمسكين بها الممثلين ما أمرت به .

• قال الله تعالى ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ 》^(٢) .

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) الأفعال : ٤٢ .

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته .

سعادة الدارين

• ثم قال تعالى ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أى هذا الذى أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولى وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إلى وإلى رسولى خير لكم فى معاشكم ومعادكم ، وهو سعادتكم فى الدارين ، فهو خير لكم وأحسن عاقبة .

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله ، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً . ومن تدبر العالم والشروع الواقعة فيه علم أن كل شر فى العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته ، وكل خير فى العالم فإنه بسبب طاعة الرسول .

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها ، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه ، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن فى الأرض شر قط ، وهذا كما أنه معلوم فى الشرور العامة والمصائب الواقعة فى الأرض ، فكذلك هو فى الشر والألم والغم الذى يصيب العبد فى نفسه ، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ، ولأن طاعته هى الحصن الذى من دخله كان من الآمنين ، والكهف الذى من لجأ إليه كان من الناجين .

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والخروج عنه .

وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علماً والقيام به عملاً .

كمال السعادة

• وكال هذه السعادة بأمرين آخرين :

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثاني : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

الكمال الإنساني

• فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره في الناس ودعوتهم إليه .

والرابعة : صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه .

ومن تعلقت همهته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، وأراد اتباعهم فهذه طريقهم حقاً :

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عياناً

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾ (١) .

فهذا نص صريح في أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي ، فيا عجباً ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ .

فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي ، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلتان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

● وقال تعالى ﴿ ألمص ﴾ . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلاً ما تذكرون ﴿ (٢) فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره : فإما هو إلا اتباع المنزل . واتباع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة . فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتباع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به .

● وقال تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكرو

بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً (١) .

فكل من اتخذ غير الرسول ، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قاتل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان . إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخالفين على خلاف طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومآل تلك الخلعة إلى الداوة واللعنة .

كما قال الله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا للمتقين ﴾ (٢) .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ (٣) تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا يففعهم ذلك . واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم . واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك ، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم ﴿ ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية . وبالله التوفيق .

• وقال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ،

(١) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

(٢) الزخرف : ٦٧ .

(٣) الأحزاب : ٦٦ - ٦٨ .

أولئك ينالهم نصيبهم من العذاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا :
 أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم
 كانوا كافرين . قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في
 النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أختهم
 لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لعلَّ ضعف
 ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخوتهم : فما كان لكم علينا من فضل
 فنوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿١﴾ .

فليتدبر العاقل هذه الآيات ، وما اشتملت عليه من العبر .

الصفحة المبطورة

وقوله تعالى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ ذكر
 الصنفين المبطلين .

أحدهما : منشىء الباطل والفرية وواضعها وداعى الناس إليها .
 والثانى : مكذب بالحق .

فالأول : كفره بالافتراء وإنشاء الباطل .
 والثانى : كفره ببحود الحق .

وهذان النوعان يعرضان لعل مبطل . فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى
 باطله ، وصد الناس عن الحق استحق تضعيف العذاب لكفره وشره .

ولهذا قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً

فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴿١﴾ فلما كفروا وصدوا عباداه عن سبيله
عذبهم عذابين : عذاباً بكفرهم وعذاباً بصددهم عن سبيله .

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يمدد العذاب .

كقوله تعالى ﴿ والسكافرين لهم عذاب أليم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من السكتاب ﴾ يعني ينالهم ما كتب
لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك .

﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون
الله ؟ قالوا ضلوا غيياً ﴾ زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة ﴿ وشهدوا على
أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، قال ادخلوا في أمم قد دخلت من قبلكم من
الجن والإنس في النار ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم ﴿ كلما دخلت أمة لعنت
أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ﴾ كل أمة متأخرة
لأولاهم ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ ضاعفه عليهم بما
أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك ، قال الله تعالى ﴿ لكل ضعف ﴾ من
الأتباع والمتموعين بحسب ضلاله وكفره ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ لا تعلم كل
طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف .

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ فإنكم جئتم
بعدنه فأرسلت فيكم الرسل وبنموا لكم الحق وحذروكم من ضلالتنا

ونهبكم عن اتباعنا وتقليدنا ، فأيتهم إلا اتباعنا وتقليدنا ، وترك الحق الذى أتاكم به الرسل . فأى فضل كان لكم علينا ، وقد ضللتكم كما ضللنا ، وتركتم الحق كما تركنا ، فضلتكم أتمم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين . فأى فضل كان لكم علينا ؟

﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ فإله ما أشفأها من موعظة وما أبلغها من نصيحة ، لو صادفت من القلوب حياة . فإن هذه الآية وأمثالها ، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله ، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر .

فصل

[معركة الأتباع والمتبوعين]

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشركين في الضلالة .

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعهم ، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم ، فهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَفْقَهُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يَرىهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم ، يزعمون أنهم يحبونهم ، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيقبرون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم .

● وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله ، كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تبعه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد مولاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب ، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة ، وموالاته كانت لغير الله تعالى ، ولا يبقى إلا السبب .

الواصل بين العبد وربّه ، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالة والمعاداة والتقريب والأبعاد ، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره ، وترك ماخالف ما جاء به ، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به ، وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره ، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه .

● فهذا هو السبب الذى لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هى النسبة التى بين العبد وبين ربّه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته^(١) التى يحول ما يحول ثم إليها مرجعه .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحنيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى

وحنيئاً ——— أبداً لأول منزل

وهذه هى النسبة التى تنفع العبد ، فلا ينفعه غيرها فى الدور الثلاثة : أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار الفرار ، فلا قوام له ، ولا عيش ولا نعيم ، ولا فلاح إلا بهذه النسبة . وهى السبب الواصل بين العبد وبين الله ، ولقد أحسن القائل :

(١) الآخية (كآنية) عود يعرض فى حائط أو فى جبل يدق طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة ، ويشد فيها الدابة .

إذا تقطع حبل الوصل بينهم
 فللمحبين حبل غير منقطع
 وإن تصدع شمل القوم بينهم
 فللمحبين شمل غير منصدع

● والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها ، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط ، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد مقابلة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى : ﴿ وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (١) .

● فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سعة رساله وطريقتهم ولنير وجهه ، يجعلها الله هباءً منثوراً . ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً ؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء ، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله ، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم .

فصل

[الأتباع السعداء]

• فهذا حكم أتباع الأشقياء ، فأما أتباع السعداء فنوعان :

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط ، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليميزوا به عن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط ، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان ، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه .

الإحسان في التبعية

• وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره ، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء هاهنا للمصاحبة .

والإحسان والتعاطف شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته .

وقد قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ (١) .

● فالأولون : هم الذين أدرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابوه .

والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم ، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة ، فيكون التأخر وعدم اللحاق فى الفضل والرتبة ، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق فى الرتبة ، والقولان كالمقتلزمين ، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا فى الفضل ولا فى الزمان ، فهؤلاء الصنفان هم السعداء .

وأما من لم يقبل هدى الله الذى بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ (٢) .

● وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى فى قوله صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت

(١) الجمعة : ٢-٤

(٢) الجمعة : ٥

كلاً . فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به . »

الغيث والعلم

• فشبه صلى الله عليه وسلم العلم الذي جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة ، فالغيث سبب حياة الأبدان ، والعلم سبب حياة القلوب .
وشبه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالَت أودية بقدرها ﴾ (١) .

الأرض والغيث

• وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث .
إحداها : أرض زكية قابلة للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج .
فذلك مثل القلب الزكي الذكي ، فهو يقبل العلم بذكائه ، فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بذكائه ، فهو قابل للعلم ، يثمر لموجبه وفعه وأسرار معادنه .
والثانية : أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه ، فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع .

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه ، فلا تصرف فيه ، ولا استنبط ، بل للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع ، وهو من القسم الذي قال

النبي صلى الله عليه وسلم : « فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ ، وَرَبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ غَيْرِ فِقْهِهِ » .

فالأول : كمثل الغنى القاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بما له ما شاء .

والثانى : مثل الغنى الذى لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه .

والأرض الثالثة : أرض قاع ، وهو المستوى الذى لا يقبل النبات ، ولا يمسك ماء ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنفع منه بشئ .

فهذا مثل القلب الذى لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التى لا تثبت ولا تحفظ ، وهو مثل الفقير الذى لا مال له . ولا يحسن يمسك مالا .

فالأول : عالم معلم ، وداع إلى الله على بصيرة ، فهذا من ورثة الرسل .

والثانى : حافظ مؤد لما سمعه ، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر .

والثالث : لا هذا ولا هذا ، فهو الذى لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً .

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق فى الدعوة النبوية ومنازلهم . منها قسمان : قسم سعيد وقسم شقي .

فصل

[أطفال المؤمنين]

• وأما النوع الثانى من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف فى دار الدنيا ، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم .

وقال الله تعالى فيهم ﴿ والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ^(١) .

• أخبر سبحانه أنه ألحق الذرية بأبائهم فى الجنة كما أتبعهم إياهم فى الإيمان .

ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ .

والضمير عائد إلى الذين آمنوا .

أى وما نقصناهم من عملهم بل رفعا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم ؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل ، بل وفيئناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم .

• ثم لما كان هذا الإلحاق فى الثواب والدرجات فضلا من الله ، فربما

وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل لهم في حكم العدل ، فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة ، كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء . فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب ، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء .

● فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقيائهم وسعدائهم .

السعداء المتبوعين والأتباع .

والأشقياء المتبوعين والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أى الأقسام هو ، ولا يفتقر بالعادة ويخلد إلى البطالة ، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده ، والله ولى التوفيق والنجاح . وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً .

فصل

[سفر الهجرة]

● والمقصود بهذا أن من أعظ التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليماً وإرشاداً ومودة .

ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع ، وأقبل الله إليه بقلوب عباده ، وفتح على قلبه أبواب العلم ، ويسره ليسرى .
ومن كان بالضد فبالضد .

زاد المسافر

● فإن قلت : قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم ، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ولا زاد له سواه ، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالقين .

فرقة المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم في العذاب مشتركون ﴾ ^(١) فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم

ببعض في العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، وتأسى
بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب
يوم القيامة .

طريق السفر

• وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا يُقال بالمنى ،
ولن يدرك بالهويغا ، وإنما هو كما قيل :

نخض غمرات الموت واسمُ إلى العلا لكي تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير في نفس تخاف من الردى ولا همه تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

أحدهما : أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس
فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً في الأرض .

والثاني : أن تهون عليه نفسه في الله ؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ،
فتخاف النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذان

الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلا صارت تلك الأحوال ريحاً رخاء في حقه
تحمّله بنفسها. إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ صارت أعظم أعوانه
وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

مركب المسافر

● وأما مركبه فصدق الاجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته ، وتحقيق
الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به ،
والانطراح بين يديه انطراح المسلم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده ،
فهو يتطلع إلى قيمه ووليه أن يجدّه ويلمّ شعثه ، ويمدّه من فضله ويستره ، فهذا
الذي يرجى له أن يقول الله هدايقه ، وأن يكشف له ما خفي على غيره من
طريق هذه الهجرة ومغازلها .

فصل

[التدبر والتفكر في آلاء الله]

• ورأس الأمر وعموده في ذلك ، إنما هو دوام التفكير وتدبر آيات الله ، حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب . فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه ، وصار له التصرف ، وصار هو الأمير المطاع أمره ، فحينئذ يستقيم له سيره ، ويتضح له الطريق ، وتراه صاكفاً وهو يبارى الريح ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خير بما تفعلون ﴾ .

فصل

[أفلا يتدبرون القرآن ؟]

● فإن قلت : إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه ، واكشف لي حجابَه ، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكره ؟

قلت : سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها وتجعلها : إماماً لك في هذا المقصد .

قال الله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . فواغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم ﴾ (١) .

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها . فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم ، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك - ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

● فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار .

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم .

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها .

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعتلة .

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة .

وكيف تضمنت جميع صفات السكّال ، التي ردها إلى العلم والحكمة .

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بالطف إشارة وأوضحها ، ثم أفصحت وقوعه .

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة .

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما .

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله ، وعلى اليوم الآخر .

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة ، وهم المؤمنون بها .

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات .

● فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ .

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام ، وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام ، ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضى التحقيق . ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع ، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به ، وإحضار الذهن له ، صدر له الكلام بأداة الاستفهام ، لتنبیه سمعه وذهنه للمخبر به ، فتارة يصدره بالآ ، وتارة يصدره بهل ، فقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكراً به ، وإما واعظاً له مخوفاً ، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به ، وإما مقررأ له .

فقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾^(١) و ﴿هل أتاك نبأ الخصم﴾^(٢) و ﴿هل أتاك حديث العاشية﴾^(٣) و ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾^(٤) متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبية على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته .

ففيه أمر آخر .

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة ، فإنه من الغيب الذى لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام ، وتأمل عظم موقعه من

(١) طه : ٩

(٢) م : ٢١

(٣) العاشية : ١ .

(٤) الذاريات : ٢٤ .

جميع مواردّه يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا .

وقوله ﴿ ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم .

فإن في ﴿ المكرمين ﴾ قولين .

أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ، ففيه مدح لإبراهيم يا إكرام الضيف .

والثاني : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه ؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له ، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم .

وقوله ﴿ وقالوا سلاماً ﴾ قال سلام ﴿ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به ، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت وال لزوم ، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث ، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن .

ثم قال (قوم منكرون) وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذم منه وجهان في المدح .

أحدهما : أنه حذف المبتدأ والتقدير : أتم قوم منكرون ، فتذم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول
« ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » .

(الثانى) قوله (قوم منكرون) لحذف فاعل الإنكار وهو الذى
كان أنكرهم كما قال فى موضع آخر (نكرم) ولا ريب أن قوله (منكرون)
ألطف من أن يقول أنكرتم .

وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾
متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف .

منها قوله ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء . وهو
يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمن ترك تحجيله وألا
يعرض للحياء ، وهذا بخلاف من يتناقل ويقبارد على ضيفه مم يبرز بمرأى
منه ويحل صرة الففكة ويزن ما يأخذ ؛ ويتناول الإساءة بمرأى منه ونحو ذلك
مما يتضمن تحجيل الضيف وحياءه ، فلفظة (راغ) تنفى هذين الأمرين . وفى
قوله تعالى ﴿ إلى أهله ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة
حاصلة عند أهله ، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ، ولا يذهب إلى
غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه .

الثانى : أنه جاءهم بحميوان تام لم يأتهم ببعضه ، لئيتخيروا من أطيب لحمه
ما شاءوا .

الثالث : أنه سمين ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر
السمين فإنهم يعجبون به ، فنكرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله (إلهيم) متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين
يدى الضيف ، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه .
وقوله (ألا تأكلون ؟) فيه مدح وآداب آخر ؛ فإنه عرض عليهم
الأكل بقوله (ألا تأكلون) وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف ، بخلاف
من يقول : ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا .

وقوله (فأوجس منهم خيفة) لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه
أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر ، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب
المنزل اطمأن إليه وأنس به ، فلما علموا منه ذلك (قالوا لا تخف وبشروه
بغلام عليم) وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل ، لأن امرأته عجبت من ذلك
فقلت : عجوز عقيم لا يولد لثلى ، فأنى لى بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من
سريته هاجر وكان يكره وأول ولده . وقد بين سبحانه هذا في سورة هود
في قوله تعالى ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ (١) وهذه هي
القصة نفسها .

وقوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ﴾ فيه بيان ضعف
عقل المرأة وعدم ثباتها ، إذ بادرت إلى التدبة فصكت الوجه عند هذا
الإخبار .

وقوله ﴿عجوز عقيم﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم ، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره ، وأما في سورة هود ، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالتعجب .

وقوله تعالى ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال ، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر ، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام .

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة : والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلاً ، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب

والعقاب ، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل ، وأن السمع ورد
بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك ، وأنه سبحانه يضرب
لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى ، فيذكر
أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن
غيرها ، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة ، متضمنة للجواب عن الشبه
العارضة لكثير من الناس .

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرأ كبيراً ، لما رأيت في الأدلة التي
أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف ، وحسن البيان ،
والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينهلج له الصدر ؛ ويكثر معه
اليقين ، بخلاف غيره من الأدلة ، فإنها على العكس من ذلك وليس هذا
موضع التفصيل .

● والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته . واختصت
هذه القصة بذكر هذين الإسمين لاقضاءهما لتعجب النفوس من تولد مولود
بين أبوين لا يولد لئلهما عادة ، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد ، وكون
الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة ، فذكر في الآية
اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته . وحكمته
في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

• ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط ، وإرسال الحجارة للمسومة عليهم . وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم ، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم ، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم .

ثم قال تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(١) ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة ، فهو إخراج نجاة من العذاب ، ولا ريب أن هذا يختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً .

وقوله تعالى ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لما كان الوجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر ، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين ، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط ، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم ، وليست خيانة فاحشة ، فكانت من أهل البيت للمسلمين ظاهراً ، وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، تبين له من أسرارهِ وحكمهِ ما يبهّر العقول ، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : إن الإسلام أعم من

الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه ، بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رساله ، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ، ويخشى عذاب الله تعالى .

كما قال الله تعالى في موضع آخر ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ (٢) فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذى ينتفع بالآيات والمواعظ . والمقصود بهذا إنما هو التنبية والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسرارهِ وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

(١) هود : ١٠٣

(٢) الأعلى : ١٠

فصل

[الرفيق والطريق]

● والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به في السفر ، فلا يجد إلا معارضاً مناقضاً ، أو لائماً بالتأنيب مصرحاً ، أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً ، وليت كل ما ترى هكذا ، فلقد أحسن إليك من خلاك طريقك ولم يطرح شره عليك ، كما قال القائل :

إنما لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

فإذا كان هذا المعروف من الناس . فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك اللائمة والاعتراض ، إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنمية باردة لا قيمة لها .

ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنمية بل يسير ولو وحيداً غريباً ، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الحجة .

● ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات ، علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى ، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله ، وهو الذي قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجزة السابقة إلى أصحابه ورقائه في طلب العلم .

وشهد الله وكفى بالله شهيداً ، ولوتواني أحداً منهم لقابليها بالقبول ولبادر

إلى تفهمها وعدّها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه ، فإن غير هذا من جويانات الركب الخيرية ، وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهى فى غاية الرخص لكثرة جالبها ، وإنما الهدية الغافقة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم .

الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى

• ومن أراد هذا السفر فعليه بمراقة الأموات الذين هم فى العالم أحياء ، فإنه يبلغ بمراقبتهم إلى مقصده ، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم فى الناس أموات ، فإنهم يقطعون عليه طريقه ، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة ، وأوفق له من هذه المفارقة ، فقد قال بعض السلف : شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم .

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه ، فنظره قاصر وهيمته واقفة عند التشبه بهم ، ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا ، حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم

• فمضى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة فى العالم موجودة ، استحدث بذلك همة أخرى وعملا آخر ، وصار بين الناس غريبا ، وإن كان فيهم مشهوراً ونسيباً ، ولكنه

غريب محبوب يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه ؛ يقيم لهم المعاذير ما استطاع ، ويحضهم بجمده وطاقته ، سائراً فيهم بعينين : عين ناظرة إلى الأمر والنهي . بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ، ويؤدى لهم الحقوق ويستوفيها عليهم . وعين ناظرة إلى القضاء والقدر ، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم ، ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع ، وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعدنه ، وفقاً عند قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ^(١) متديراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم . فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لسكتهم وشفقتهم فإن العفو ماعفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم .

● فهذا ما منهم إليه ، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف ، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه ، وهو ما أمر الله به . وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها .

فأى كمال للعبد وراء هذا ؟ وأى معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟ فلو فكر الرجل فى كل شر يلحقه من العالم . أعنى الشر الحقيقى الذى لا يوجب له الرفعة والزلزلى من الله — وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها ، وإلا فمع القيام بها فشكل ما يحصل له من الناس

فهو خير له وإن شراً في الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيراً وإن ورد في حالة شر وأذى .

كما قال الله تعالى ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ (١) .

وقال تعالى لغيره صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ (٢) وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق ، فإنهم إما يسيئوا في حق الله وفي حق رسوله ، فإن أساءوا في حقك تقابل ذلك بعفوك عنهم ، وإن أساءوا في حقك فاسألني أغفر لهم واستجلب قلوبهم ، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم ، فإن ذلك أخرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة ، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك ، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك ، فإن الله يحب المتوكلين .

• فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله وقال تعالى فيه ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ (٣) قالت عائشة رضي الله عنها « كان خلقه القرآن » وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء .

أحدها : أن يكون العود طيباً ، فاما إن كانت الطبيعة جافية غليظة

(١) النور : ١١

(٢) آل عمران : ١٥٩

(٣) القلم : ٤

يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علماً وإرادة وعملاً ، بخلاف الطبيعة المتقادة
اللييفة السلسة القياد ، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر .

الثانى : أن تكون النفس قوية غالبية قاهرة لدواعى البطالة والنق
والهوى ، فإن هذه الأمور تنافى السكال ، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا
لم تزل مغلوقة مقهورة .

الثالث : علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم
والورم ، والزجاجة والجوهرة :

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذى
سبقت لهم من ربهم الحسنى ، وتمت لهم العناية .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أبداً إلى
يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

دليل الرسالة

ص	
٣	مقدمة
٧	فاتحة الرسالة
٧	البر والتقوى
١٠	التقوى
١٢	العلم النافع
١٣	الإثم
١٤	المدوان
١٥	فصل : ما بين العبد وربه
١٦	فصل : في الهجرة إلى الله ورسوله
١٧	مبدأ الهجرة ومنهاها
١٧	الفرار إلى الله
١٨	الفرار من الله
١٩	الهجرة إلى الله
٢١	فصل : الهجرة بين القوة والضعف
٢١	الهجرة العارضة
٢١	الهجرة الدائمة
٢٢	فصل : في الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٣	تعريف الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم
٢٤	هجرتان
٢٦	الحب بين العلم والحال

٢٧	ما في الآية من تأكيد اتباع الرسول
٢٩	حب الرسول
٣٠	أدعياء المحبة
٣١	الإعراض عن الرسول
٣٢	شهداء الله
٣٤	اللى والإعراض
٣٦	الحيرة لله
٣٧	موقف الأئمة من السنة
٣٩	النداء بالإيمان
٤٠	طاعة ولي الأمر
٤١	من هم أولو الأمر
٤٣	سعادة الدارين
٤٤	كمال السعادة
٤٤	الكمال الإنساني
٤٧	الصفان المبطلان
٥٠	فصل : معركة الأتباع والمتبوعين
٥٣	فصل : الاتباع السعداء
٥٣	لإحسان في التبعية
٥٥	الغيث والعلم
٥٥	الأرض والغيث
٥٧	فصل : أطفال المؤمنين
٥٩	فصل : سفر الهجرة

س

٥٩	زاد المسافر
٦٠	طريق السفر
٦١	مركب المسافر
٦٢	فصل : التدبر والتفكر في آلاء الله
٦٣	فصل : أفلا يتدبرون القرآن ؟
٧٣	فصل : الرفيق والطريق
٧٤	الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى

٢١٠٤

أ.م.ز. ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ، أبو عبد الله .

زاد المهاجر إلى ربه ، قدم له وقرأه محمد جميل غازي .

القاهرة ، مطبعة المدنى ، د . ت .

٨٠ ص ، ٢٤ سم .